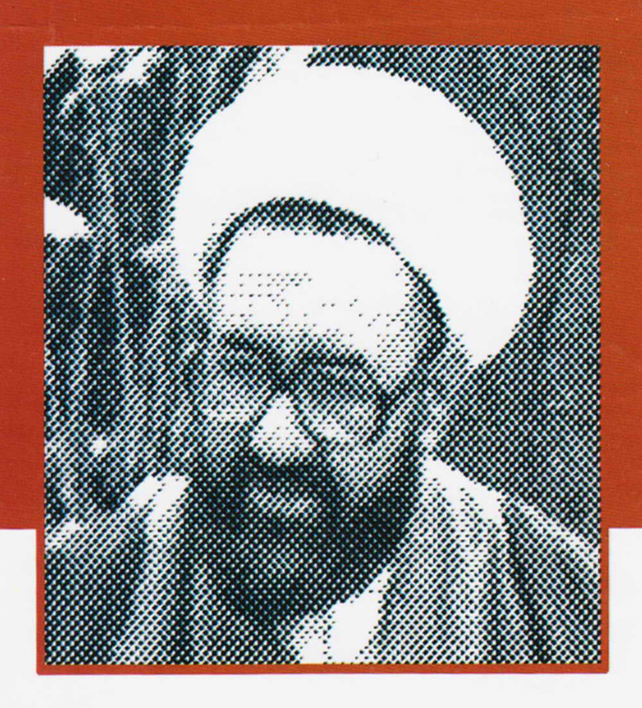
شهيد يتحدث عن الشهيد

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهّری



ترجمة:
أ.د. محمد علی آذرشب
جامعة طهران

شهيد يتحدث عن الشهيد

محاضرة ألقيت ليلة العاشر من محرّم

١٣٩٣هجرية

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهّري

ترجمة وتقديم

أ.د. محمد علي آذرشب

جامعة طهران



سرشناسه : مطهری، مرتضی، ۱۲۹۹ - ۱۳۵۸.
عنوان قراردادی : شهید. عربی .
عنوان و نام پدیدآور : شهید یتحدث عن‌الشهید: محاضره الفیت لیله العاشر من محرم ۱۳۹۳ هجریه/ مرتضی المطهری؛ترجمه و تقدیم محمدعلی آذرشب.
مشخصات نشر : تهران: به‌اندیشان، ۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری : [۷۲] ص.
شابک : 978-600-90178-2-9
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت : عربی .
یادداشت : کتاب حاضر سخنرانی شب دهم محرم ۱۳۹۳ هجری قمری نوسنده است .
یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس .
موضوع : شهادت.
شناسه افزوده : آذرشب، محمدعلی ،مترجم
رده بندی کنگره : BP۱۹۶/۵۵//م۶ش۹۰۴۳ ۱۳۸۷
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۳۷۷
شماره کتابشناسی ملی : ۱۲۵۹۷۱۰

شهيد يتحدث عن الشهيد

الكاتب: الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري

المترجم: الدكتور محمد على آذرشب

الناشر: به انديشان

تصميم الغلاف: داود ياراحمدى

العدد : ٥٠٠٠ نسخه

الطبعة: الاولى

شابک: ۹-۲-۹۰۱۷۸-۶۰۰-۹۷۸

الطباعة والتجليد: مجتمع چاپ نقشينه پيمان

السعر: ٣٥٠٠ تومان -$٥ - 1.٥KD

تلفون مركز التوزيع: ٠٠٩٨٩٣٦٠٥٥٩٤٣٠-٠٠٩٨٢١٢٢٨٥١٠٩٣

مقدمة نجل الشهيد مطهري

الفيلسوف العارف والفقيه الفاضل الأستاذ العبقري الشهيد مرتضى مطهّري (رضوان الله تعالى عليه) هو من نوابغ الدهر ونوادره، وغيابه ترك فراغًا كبيرًا في دراسات الحوزات العلميّة الدينيّة والجامعات والعلوم الإنسانيّة.

وُلد في فبراير (شباط) عام ١٩١٩م في مدينة «فريمان» التابعة لمحافظة خراسان في أسرة دينيّة . أنهى دراسة المقدّمات في حوزة مشهد المقدّسة عام ١٩٣٧م، ثم هاجر إلى مدينة قم المقدّسة وحوزتها العلمية لمواصلة دراسة العلوم الدينيّة ، ونبغ بسرعة، فكان عمره القصير حافلاً ومباركًا؛ إذ خلّف آثارًا قيّمة ونفيسة قبل أن يلبّي نداء ربّه ويُرزق الشهادة في الأوّل من أبريل (نيسان) عام ١٩٧٩م.

لقد كان الأستاذ الشهيد معلّمًا حنونًا يحمل آلام المجتمع وهمومه، واستطاع بقلمه الرائع الذي يحمل أنفاسًا قدسيّة أن يمنح النور للنفوس ويدعوها إلى الحياة الطيّبة، فلقد ارتوت روحه السامية من ينبوع العرفان وأسرار الوحي والحكم المعنويّة المتعالية، وتعامل مع التعليم والتأليف والوعظ والخطابة تعامل العاشق.

الحرقة التي تحملها أحاديثه وآثاره أثّرت في النخبة و عامة الناس على السواء، اذ انبعثت من قلب عاشق لا يعرف التفاخر ولا التظاهر.

تأثّر (رحمه الله) بأساتذته، ولاسيما الإمام الخميني والعلاّمة الطباطبائي (رضي الله عنهما) .

هذه الحقيقة تظهر جليّة في آثار العلاّمة الشهيد، فهو إذا ذكر أستاذه العلاّمة الطباطبائي قال: «روحي فداه»، وإذا ذكر أستاذه الإمام الخميني عبّر عنه بـ «الروح القدسيّ».

وبسبب ما استلهمه من هذين الاستاذين كانت له عناية خاصّة بتهذيب النفس والمراقبات الروحيّة، إلى جانب تعمّقه في العلوم. فكان من خصائص سلوكه: البكاء والمناجاة في الأسحار، وذكر الله على كلّ حال،

والابتعاد عن أهل الدُّنيا، والارتباط بأصحاب الهموم الكبيرة، والاهتمام الجادّ بالقرآن وبمدرسة العرفان.

لقد كان مصداق الآية الكريمة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢) ومثالاً عمليًّا في الاستجابة لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٤).

كان (رحمه الله) كأساتذته من الأمثلة البارزة لرجال الإحياء الديني ، في القرن الخامس عشر الهجري، بل يمكن مقارنته بالإمام محمّد الغزالي أو الخواجة نصير الدِّين الطوسي، فلقد واءم بين الدين والفلسفة، والدِّين والعلم، والدِّين والفنّ، والدِّين والمجتمع، والدِّين والسياسة، والدِّين والعلوم الإنسانيّة، والدِّين والأدب، والدِّين وعلم النفس، وأزال القطيعة التي حدثت منذ عصر النهضة فلاحقًا بين هذه المفاهيم وبين الدِّين في العالم الجديد، وخلق نوعًا من المصالحة والانسجام بينها.

إنّ أهمّ خصيصة لمؤلّفات الشهيد: البيان العقلي والفلسفي (البرهاني)، لكنه ربط جوهر الدِّين بالحكمة

الذوقيّة والإشراقيّة لاسيما الحكمة المتعالية، فعدّ العلم اللدنيّ والباطني (العرفان) من الأُسس المعرفيّة، ومن ثمّ فهو كان يرى روح الحكمة المتعالية في النور والعرفان الإلهي. إنّه بيّن الأدب العرفاني والإنساني، خاصّة عرفان حافظ ومولانا وابن الفارض، على أساس مبادئ الحكمة المتعالية وعرفان محيي الدِّين بن عربي، ولهذا كان يرى أنّ الأدب العرفاني هو أفضل طريق لفهمٍ أدقّ للحكمة الذوقيّة.

من الخصائص الذاتيّة للشهيد: ذكاؤه المتوقّد بالقريحة والذوق العلمي الرفيع، وتحليه بالحكمة، والنفس الأبيّة الطاهرة، والفطرة النورانيّة، والروح العلميّة الموضوعيّة الباحثة عن الحقيقة، والرافضة لكلّ أشكال التعصّب والجمود، والإنصاف بين الحقائق العلميّة والدينيّة، وكذلك تنوّع آثاره وأفكاره في مجالات العلوم الإنسانيّة المختلفة، واتّصاف قلمه بالسلاسة المحبّبة التي تدلّ على موهبة فطريّة.

من وجهة نظره: الدِّين ينتج ثقافة.. ثقافة حيّة فاعلة، والدين عامل أيديولوجي وماورائي ينطوي على حياة هادفة. المقصود بالعامل الايديولوجي هو نفس الحكمة الإلهيّة والعرفان ونفس انبعاث الروح الإلهيّة للإنسان

والصيرورة في مسير الجذبة والعشق الإلهي والتكامل الإنساني. ومن ثمّ فالدِّين ــ في رأيه ــ ليس مجموعة من السنن والآداب والعادات والعقائد المجرّدة من الروح والبعيدة عن المنطق، فالأنبياء بُناة ثقافة في الأساس، وبعملهم هذا يخلقون الأرضية للحضارة والمدنيّة كما شهدنا ذلك في الازدهار الحضاري الإسلامي خلال القرنين الأوّل والثاني للهجرة.

من الخصائص الأخرى للأستاذ الشهيد وآثاره: البحث في المعارف والعلوم المقارنة لاسيما الفلسفة المقارنة، وهو ما يلاحظ جيّدًا في هوامش وتعليقات كتابيه: «أُسس الفلسفة والمنهج الواقعي» و «شرح المنظومة». فقد قدّم الشهيد المعارف الإلهيّة من خلال فلسفة صدر المتألِّهين الشيرازي، مع عدم إغفاله الفلسفة والأفكار الغربيّة، وكذلك الفلسفة المادّية، ونقده للآراء الجديدة في العالم.

هذه الخصيصة لا تنحصر بالحكمة أو الفلسفة بل تشمل سائرفروع العلوم الانسانية مثل الاقتصاد وفلسفة الأخلاق وفلسفة التاريخ وعلم الكلام والقانون وغيرها.

لقد كان للأستاذ الشهيد نظرة حكيمة ورؤية واعية

تميَّز بها في «علم نفس المـــرأة» ونظامهـــا الحقـــوقي في الإسلام، وأولى اهتمامًا ملحوظًا بقضاياها وحقوقهـــا في العالم المعاصر.

امتازت لغة الشهيد مع الجيل المعاصر بكونها لغة جميلة وجذّابة مقرونة بالوعي والمنهج العلمي، فقد عرف عصره جيّدًا وعرض الخطاب الديني الإلهي منسجمًا معه، دونَ أن ينجرّ باسم التجديد إلى موضات العصر.

لقد كان تجديده (رضوان الله تعالى عليه) ينطلق مـــن روح السنّة الإلهيّة وسرّ الوحي والعرفان الإلهي والمبـــادئ الدينيّة الأصيلة والأسس والضوابط الشرعيّة.

هذه الخصائص هي التي جعلت آثار الأستاذ الشـــهيد غضّة حيّة فاعلة جميلة محبّبة رائعةذات خطاب عالمي.

وكان الشوط الأخير من دعوته أنه سقى شجرة هـــذه الدعوة بدمه لتبقى يانعة خالدة خلود الشهداء.

د. مجتبى مطهري

مقدمة الطبعة الجديدة

بعد أكثر من ربع قرن عدت لأقرأ ما كتبه الأستاذ مرتضى مطهّري عن الشهيد، فوجدت خطابه حيّاً طريّاً، كأنه يريد أن يخاطب هذا الجيل والأجيال التالية دونما حدود في الزمان أو المكان.

كثيرة هي كتابات الشهيد مطهّري التي لها ذاتُ الصفة.. فما السرّ ؟!

قليل من الإمعان في شخصيّة هذا الرجل تكفي لأن تبيّن سببَ خلود ما كتبه.. إنه بكلمة واحدة: «رجل إحيائي».

و«الإحياء» هو الامتداد الحقيقي لرسالة السماء، فالإسلام إحياء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وكل خطاب يواصل هذا الهدف السماوي، فهو

خالدٌ، لأنه يرتبط بفطرة الإنسان.

الإنسان مخلوق من «طين» يرمز إلى الجانب الهابط من الصفات البشرية، وفيه «نفخة من روح رب العالمين» ترمز إلى الجانب المتسامي منه. وإذا بقي الكائن البشري في أغلال الطين، فإنه خسر حياته الإنسانية، وإذا ارتقى إلى سموّ تلك «النفخة» فقد سار على طريق «الحياة».. والرسالة الإسلامية مهمّتها هذا الارتقاء بالإنسان.. وهكذا مهمّة الإحيائيين.

البقاء في أغلال الطين مَظهره لدى الإنسان الانغماس في الذاتية والانكفاء على المصالح الشخصية الضيقة، والتحرر من هذه الأغلال مظهرُه الارتفاع إلى مستوى الأهداف الاجتماعية الكبرى.

مرتضى مطهّري رجل متحرّر من أغلال الذاتية والأنانية، وهبَ نفسه لرسالته، وعاش مِنْ أجلها لا مِنْ أجل مصالحه الخاصة، خاض كلّ مجال يرى فيه خدمة للإسلام ابتداءاً من كتابة قصص للأطفال حتى شرح النظريات الفلسفية المعمّقة، ومن المنبر الشعبي إلى منصّة الجامعة، ومن القرى والأرياف إلى المحافل العلمية للمفكرين والمثقفين.

وبهذه الروح «الحيّة» تناول في دراساته القضايا الإسلامية

المختلفة تناولاً إحيائياً، من تلك محاضرته عن الحسين بن علي(ع) التي يراها القارئ بين يديه.. ألقاها قبل قيام الجمهورية الإسلامية في ليلة العاشر من محرّم.

المهمّ في هذه المحاضرة ــ كما ذكرت ــ تلخيصه لرسالة الحسين الشهيد بأنها «إحياء» وهذه رسالة كل شهيد.. والمهم فيها أيضا أنه أوضح الخلفية الإنسانية العقلية الشعورية الواعية للشهادة..

منطق الشهيد: مزيج من مشاعر إنسان «عارف» أي متحلّ بالمعرفة العميقة لرسالة السماء، و«مصلح» يريد أن يرسمَ الغدَ الأفضلَ لمجتمعه.

من هنا فالشهادة ليست طلباً للموت.. بل هي صنع للحياة.. الحياة «الإنسانية» بكل ما يجب أن تتصف به هذه الحياة من شرف وكرامة وعزّة وعدالة. وليست هوساً دينيّاً ناتجاً عن تصوّرات طائشة غير محسوبة تؤدي إلى نتائج تتناقض تماماً مع عملية «الإحياء».

«الشهادة» كما يرسمها مرتضى مطهّري انتخاب واع للطريق يؤدّي إلى ضخّ دم جديد في شرايين الأمة.. وإن لم تكن كذلك فليست بشهادة.. وليست بعملية إحياء.

إن «الإحيائيين» يتحمّلون اليوم مسؤوليات أكبر من تلك التي كانت في زمن الشهيد مرتضى مطهّري.

يحملون مسؤولية مواجهة الموجة الضخمة من الغزو الثقافي الذي يستهدف إبعاد الأمة عن أهدافها الكبيرة ويريد دفعَها نحو الانهماك في همومها اليومية وفي تلبية نداءات غرائزها الحيوانية.

ويحملون مسؤولية مواجهة المحاولات الرامية إلى إصابة الأمة بفقدان المناعة والمقاومة.

كما يحملون مسؤولية الدفاع أمام عمليات المسخ والتشويه التي يُراد لها أن تحيط بأقدس المفاهيم الإحيائية، ومن تلك «الشهادة».

وبعد ذلك يتحمّلون مسؤولية تناول قضايا الأمة وتاريخ الأمة وأدبيات الأمة بمنظار «الإحياء» كي يزيلوا عنها غبار عصور الركود والانحطاط والتخلّف.

عسى أن تكون هذه المحاضرة بداية دراسات جديدة لكل واقعنا الإسلامي بمنظار عودة الحياة الحضارية، والله وليّ التوفيق.

أ.د. محمد علي آذرشب

رجب ١٤٢٩هـ

كلمة لابد منها..

الحديث عن الشهادة والشهيد لا يمكن أن يُصاغ بعبارات علمية ولا بمعادلات رياضية.. إذ إنه حديث «الروح» لا حديث «العقل»...

التحليلات الفلسفية والعلمية والعقلية لا تستطيع أن تخلق الإنسان المجاهد، ولا بمقدورها أن تبعث في الموجود البشري اندفاعاً نحو الاستشهاد.

الشهيد إنسان ارتفعت روحه إلى مستوى الشهادة.. وتحرّرت روحه من قيود الشهوات الهابطة، فأضحى منطقه منطقاً جديداً قد لا يفهمه «العلماء» و«الفلاسفة» و«عقلاء القوم»!

حديث الشهيد والشهادة لا يفهمه إلا من يسير على خط الشهادة، ولا يتذوّقه إلا من سما وتحرّر من ربقة البطن والفرج والأهواء الدنيئة.

وحديث الشهيد والشهادة.. أيضاً، لا يمكن أن يكون صادقاً مخلصاً إلاّ إذا انطلق من قلب إنسان وهب نفسه لرسالته، وكسر إطار ذاتياته لينصهر في هدفه السامي الكبير.

وهذا الحديث يحلو ويصدق ويتعمق أكثر.. لو صدر عن قلب

إنسان وهب نفسه لهدفه السامي حتى آخر لحظة من حياته.

يحلو ويصدق ويتعمّق أكثر فأكثر إذا صدر عن قلب إنسان سقط مضرّجاً بدمه على طريق رسالته الكبرى.

وهذا الذي بين يدي القارئ ترجمة لحديث عن الشهيد والشهادة. ألقي في «ليلة الشهيد والشهادة» وصدر عن قلب إنسان قضى حياته على طريق الشهادة.. أي على طريق الذوبان في الهدف السامي، والتفاني من أجل تحقيق هذا الهدف.

هذا الحديث ألقاه الأستاذ مرتضى مطهري شهيد الثورة الإسلامية في إيران.

وهو ــ كما قلت ــ حديث الروح قبل أن يكون حديث العقل..

وحديث الروح هذا أقدّمه إلى الذين يستطيعون أن يتذوّقوه.. والى الذين يستطيعون من خلال سطوره أن يستشمّوا رائحة الشهادة التي فاحت في سماء إيران فأسفرت عن ولادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

المعرّب

١٤٠٢هجرية

قدسية الشهيد

ثمة كلمة لها في عرف البشرية عامة، وفي عرف المسلمين خاصة قدسية وعظمة واحترام.

العالم، والفيلسوف، والمخترع، والبطل، والمصلح، والمجتهد، والأستاذ، والطالب، والعابد، والزاهد، والمؤمن، والمجاهد، والمهاجر، والصديق، والآمر بالمعروف، والوليّ، والإمام، والنبي.. كلمات، بعضها مقرون بالعظمة والاحترام لدن أبناء البشر عامة.. وبعضها الآخر تحمل هذه الصفة عند المسلمين خاصة.

ومن الطبيعي أن اللفظ لا يحمل طابع القداسة بنفسه، بل بما ينطوي عليه من معنى..

جميع المجتمعات البشرية تنظر بعين التقديس إلى بعض المفاهيم مع اختلاف طفيف بينها.. وهذا التقديس يرتبط بجوانب خاصة من نفسية هذه المجتمعات في حقل تقويمهما للأمور غير الماديّة.

وهذه المسألة تحتاج إلى دراسة فلسفية وإنسانية معمقة لسنا

بصددها الآن.

و«الشهيد» كلمة لها في الإطار الإسلامي قداسة خاصة..

والإنسان الذي يعيش المفاهيم الإسلامية ينظر إلى هذه الكلمة وكأنها مؤطرة بهالة من نور.

كلمة الشهيد مقرونة بالقداسة والعظمة في جميع أعراف المجموعات البشرية مع اختلاف بينها في الموازين والمقاييس، ولسنا بصدد الحديث عن المفهوم غير الإسلامي لهذه الكلمة.

الشهيد ـــ في المعايير الإسلامية ـــ هو الذي نال درجة «الشهادة».. أي الذي بذل نفسه، على طريق الأهداف الإسلامية السامية، ومن أجل تحقيق القيم الإنسانية الواقعية.

والإنسان الشهيد في المفهوم الإسلامي يبلغ ـــ بشهادته ـــ أسمى درجة يمكن أن يصلها الإنسان في مسيرته التكاملية.

نستطيع أن نفهم سبب قدسية كلمة «الشهيد» في الإسلام وفي أنظار المسلمين من خلال الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الشهادة والشهيد وكذلك من خلال ما وصلنا من روايات في هذا الحقل.

مكانة الشهيد

القرآن الكريم يقول عن الشهيد:

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران/ ١٦٩).

فالشهداء ــ إذن ــ «أحياء» و«عند ربهم» يرزقون.. وما أعظمها من منـــزلة!!

والسُنّة تُكثر من تشبيه المكانة السامية التي يمكن أن ينالها إنسان في حياته بمكانة الشهيد.. لأنها ذروة الرقي والتكامل في المسيرة الإنسانية..

فالسائرون على طريق طلب العلم، من أجل التعرف على الحقيقة، وطلباً لمرضاة الله تعالى، لا بهدف الترفّع والاتّجار، هم شهداء في مفهوم الروايات الإسلامية إن توفّاهم الله على هذا الطريق.

وهذا التشبيه يدل على علوّ مكانة طالب العلم إضافة لما له من دلالة على أن الشهادة هي الذروة في مسيرة الإنسان التكاملية.

ونظير هذا التشبيه ورد بشأن الساعي علـــــى طريـــــق إدارة دفّة اقتصاد عائلته، وبالتالي على طريق إدارة اقتصاد مجتمعه.. في الحديث: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»...

حق الشهيد

كل أولئك الذين خدموا البشرية بشكل من الأشكال لهم حقّ على بني الإنسان، سواء أسدوا خدماهم عن طريق العلم أم الفكر أم الفلسفة والاختراع والاكتشاف أم الأخلاق والحكمة العملية.

لكنّ أيّ واحد من هؤلاء ليس له على البشرية حقّ كما للشهيد..

ومن هنا فإن ما يكنّه أبناء البشر من تعاطف وانشداد تجاه الشهداء يفوق ما يكنّونه تجاه سائر خَدَمَة البشرية.

ولماذا هذا التفوّق؟

الدليل واضح.. كل المجموعات التي أسدت خدمات إلى البشرية مَدينة للشهداء.. لكن الشهداء قلّما كانوا مدينين لهذه المجموعات.

العالم في علمه.. والفيلسوف في فلسفته.. والمخترع في

اختراعه.. ومعلّم الأخلاق في تعاليمه، محتاجون إلى أجواء حرّة مساعدة كي يقدّموا خدماهم..

والشهيد بتضحياته يوفّر هذه الأجواء..

الشهيد كالشمعة التي تحترق وتفنى لتضيء الطريق للآخرين..

الشهداء شموع البشرية على طريقها اللاحب الطويل..

ولولا هذه الشموع لما استطاعت المسيرة البشرية أن تواصل طريقها، ولما استطاع أبناء البشر في ظلمات الاستعباد والاستبداد أن يمارسوا نشاطاهم ويقدّموا خدماهم الإنسانية.

والله سبحانه يخاطب نبيه الكريم قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب/ ٤٤-٤٥).

و«السراج المنير» مفهوم يدل على الإضاءة، وينطوي على معنى الاحتراق وإزالة دياجير الظلام.

جسد الشهيد

أحكام الإسلام تقوم كلّها على أساس الحكمة والمصلحة، وجميعها لها دلالاتها الخاصة، وخاصة دلالاتها الاجتماعية.

ومن هذه الأحكام ما يتعلّق بالميّت من غسل وتكفين وصلاة ودفن، وكلها ذات معان خاصة لسنا بصدد الحديث عنها.

إلا أن أحكام الميت هذه لها استثناء.. وهذا الاستثناء يختصّ بجسد الشهيد.

فأحكام الميت لا تُطبق على جسد الشهيد سوى الصلاة والدفن، أما الغسل والتكفين.. فلا.

الشهيد يدفن بدمه وملابسه..

وهذا الاستثناء له مغزاة العميق، إنه يرمز إلى أن روح الشهيد بلغت درجة من السموّ والطهارة بحيث ترك هذا السمو والطُّهر آثاره على جسد الشهيد وعلى دمه، بل وحتى على ما يرتديه من

لباس.

بدن الشهد «جسد متروّح» إن صح التعبير، أي أضحى وجوداً تجري عليه أحكام الروح..

ولباسه أضحى.. «لباساً متجسداً» أي تجري عليه أحكام الجسد الذي يضمّ تلك الروح الطاهرة.

فجسد الشهيد ولباسه اكتسبا الشرف من طُهر روحه وعلوّ فكره وسموّ تضحيته.

وتلك دلالة أخرى على قداسة الشهيد في المفهوم الإسلامي...

منشأ القدسية

ما هو مبعث القدسية في «الشهادة»؟!

من الواضح أن هذه القدسية لا تأتي من كونها مقرونة بالقتل، فكثير من حوادث القتل لا تعدو أن تكون هلاك إنسان، وربما اقترنت أحيانا بالعار بدلا من الفَخار.

لنوضّح هذه المسألة أكثر...

موت الأشخاص ذو أنواع وأقسام.

١ــ الموت الطبيعي، الإنسان يموت بشكل طبيعي بعد أن يقضي عمره الطبيعي، ومثل هذا الموت لا ينطوي على عار ولا فَخار.. ولا يستتبعه عادة أسف عميق.

٢- الموتُ الاخترامي[1]، وهو ما يحدث على أثر انتشار الأمراض الفتاكة والأوبئة أو وقوع الزلازل والسيول ونظائرها من السوانح الطبيعية.

هذا النوع من الموت لا يتضمّن عاراً ولا فخاراً أيضاً.. لكنه يقترن بالأسف عادة لأنه يؤدي إلى إتلاف الأفراد.

٣- الموت المصحوب بعمل جنائي، حيث المقتول بريء، والقاتل ينقضّ على فريسته إرضاء لهواه وقضاءاً على مَنْ يتصور أنه يزاحمه في مصالحه الشخصية.

مثل أنواع هذا القتل نقرأ أخبارها باستمرار على أعمدة الصحف وفي صفحات التاريخ..

فهذا رجل قتل صاحبه لمنافسة بينهما على مال أو متاع.

وهذه امرأة قتلت طفل زوجها كي تستأثر وحدها بحبّ الزوج.

وذاك الوالي أعمل السيف في رقاب أبناء وال آخر تجنباً لمنافستهم إياه في المستقبل.

وعلى مسرح مثل هذه الحوادث جانبان.. جانب يقف فيه

١- اخترمه: أهلكه واستأصله.

القاتل ويداه ملطّختان بدم الجناية، وعيناه يتطاير منهما الخبث والشرر ومنظره يثير الاشمئزاز والاحتقار.. وجانب آخر يظهر فيه المقتول صريعاً مظلوماً، مهدور الدم، يُثير تجاهه عواطف الأسف والترحّم.

ومن الواضح، أن هذا النوع من الموت ــ مع ما يتضمّنه من أسف وترحّم على القتيل ــ لا يقترن بالإعجاب والافتخار، لأن المقتول لم يكن له دور في العمليّة، بل إن عوامل الحسد والعداء والحقارة هي التي أردت هذا الإنسان قتيلاً.

٤- الموت الجنائي، وهو ما يحدث على أثر جناية يرتكبها القتيل كالانتحار مثلاً، وهو أحطّ أنواع الموت. وأولئك الذين يُقتلون في حوادث اصطدام السيارات نتيجة ارتكابهم خطأً عمدياً، وكل الذين لا قَوا حتفهم على طريق الانحرافات يموتون بهذا النوع الجنائي.

٥- الاستشهاد، وهو الموت الذي يتّجه نحوه القتيل تحقيقاً لهدف مقدس إنساني، أو «في سبيل الله»، على حد التعبير القرآني، مع ما يحتمله أو يظنه أو يعلمه من أخطار في طريقه.

وللشهادة ركنان:

الأول. قدسيّة الهدف، والموت على طريق تحقيق هذا الهدف

المقدّس، أي أن يكون «في سبيل الله».

الثاني: أن تكون الشهادة قد تمّت عن علم ووعي.

وللشهادة وجهان:

وجه مقدّس في انتسابها للمقتول.. ووجه بشع إجرامي في انتسابها للقاتل.

الشهادة ــ بما تحمله من صفات سامية كالوعي والاختيار وقدسيّة الهدف وخلوّها من الميول الذاتية ــ عمل بطولي يبعث على الإعجاب والافتخار.

هذا النوع من «الموت» هو وحده الذي يفوق «الحياة» عظمة وقدسية وأهمية.

وهنا ينبغي أن نشير إلى ظاهرة مؤسفة تطغى على مجالس ذكر الحسين بن علي (عليه السلام).

هذه المجالس تضفي على مقتل الحسين طابع النوع الثالث من الموت، أي موت الإنسان البريء الذي ذهب دمه هدراً، مع أن هذه المجالس تذكر الحسين على أنه «شهيد» بل «سيد الشهداء».

كثير من الموالين لآل البيت يذرفون الدموع على مظلومية سيد الشهداء، وكأنهم يبكون على طفل بريء ذهب ضحية أهواء

طاغية من الطغاة[1].

لو كان الحسين كذلك.. لو كان مظلوماً عديم الدور في حادث مقتله، كسائر المقتولين ظلماً وعدواناً.. لما كان شهيداً، فما بالك بكونه سيد الشهداء!!

ليس من الصحيح أن نحصر الحسين في إطار الإنسان الذي ذهب ضحية أهواء الطواغيت.

نعم، الوجه الآخر لفاجعة كربلاء يمثل بشاعة القاتلين وإجرامهم واستفحال أهوائهم الدنيئة.

لكن الوجه الآخر الذي يرتبط بالحسين هو الشهادة.. أي المقاومة الواعية الذكية على طريق الهدف المقدس. فمع علم الحسين بالمصير الذي سيواجهه نتيجة مواقفه المتصلّبة رفض البيعة مع الطغاة رفضاً باتاً.. وأبى السكوت واعتبر المداهنة معصية ما بعدها معصية.

تاريخ الحسين وما سجّله في التاريخ من كلمة وعمل، أوضح

١- هذه الظاهرة السلبية التي يذكرها المؤلف الشهيد، هي انعكاس طبيعي لما كان يسود المجتمع الإيراني من روح هابطة، أما حين سمت هذه الروح وتكاملت، وبلغت مستوى فهم الشهادة والشهيد فقد تغير وجه أكثر المجالس الحسينية بشكل واضح، وزالت منها تقريباً هذه الظاهرة السلبية التي يذكرها المؤلف. (م) .

دليل على ما نقول.

الشهادة تكتسب ــ إذن ــ قداستها من صفتها التضحوية الواعية على طريق الهدف المقدس.

الجهاد، أو مسؤولية الشهيد

العملية التي تؤدّي إلى الشهادة، أي إلى الموت الواعي على طريق الهدف المقدّس، قد اتخذت في الإطار الإسلامي شكل مبدأ هو «الجهاد».

ولو أردنا أن نوضّح هذا المبدأ، فثمة أسئلة متعددة تطرح نفسها على بساط البحث منها:

هل إن ماهيّة هذا المبدأ دفاعية أو هجومية؟ وإن كانت دفاعية، فهل ينحصر في إطار الدفاع عن الحقوق الشخصية والقومية، أم يتّسع نطاقه ليشمل الحقوق الإنسانية، كالحرية والعدالة..؟

وهل التوحيد جزء من الحقوق البشرية والإنسانية أم لا ؟

وهل مبدأ الجهاد يتنافى أساساً مع حقّ الحرية أم لا ؟

الإجابة على هذه الأسئلة تتطلّب الخوض في بحوث وتفصيلات شيّقة مفيدة لا مجال لها في حديثنا هذا.. فنكتفي بالقول:

إنّ الإسلام ليس بالدين الذي يدعو الفرد إلى إدارة خدّه الأيسر إن صُفِعَ على خدّه الأيمن، وليس بالدين الذي يقول: ما لله لله، وما لقيصر لقيصر..

وليس بدين يفتقد الهدف ويعدم منهج الدفاع والدعوة.

آيات عديدة في القرآن الكريم تذكر ثلاثة مصطلحات مقرونة مع بعضها هي:

«الإيمان» و«الهجرة» و«الشهادة»..

إنسان القرآن موجود مرتبط بالإيمان ومتحرّر من كل شيء آخر، وهو الموجود الذي يهاجر لينقذ إيمانه، ويجاهد لإنقاذ إيمان المجتمع، أو بعبارة أخرى، لإنقاذ المجتمع من براثن الكفر والشرك.

يطول بنا الحديث لو استعرضنا الآيات والروايات الواردة في هذا الحقل. لذلك نكتفي بإلقاء الضوء على جمل معدودات من إحدى خطب أمير المؤمنين في نهج البلاغة:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَ هُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَ دِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ

فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَ دُيِّثَ[١] بِالصَّغَارِ وَ الْقَمَاءَةِ[٢] وَ ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ[٣] وَ أُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ[٤] بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَ سِيمَ الْخَسْفَ[٥] وَ مُنِعَ النَّصَفَ[٦]» [٧].

فالجهادُ، باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه.. نعم لخاصة أوليائه.. وهي كلمة لها مدلولها العميق..

باب الجهاد غير مفتوحة بوجه الجميع.. لأنّ وسام المجاهد لا يتقلّده إلا من كان لائقاً لذلك.. وأولياء الله غير لائقين بأجمعهم لتقلّد هذا الوسام، بل.. خاصة أولياء الله.

ورد في القرآن: إن للجنّة ثماني أبواب.

فَلِمَ هذه الأبواب الثمان؟!

أللتخفيف من شدة الزحام؟

١- ديث: مبني المجهول من ديثه، أي : ذلله.

٢- القماءة: الصغار والذل .

٣- الأسداد: جمع سد، أي الحجب.

٤- أديل الحق منه: أي صارت الدولة للحق بدله.

٥- الخسف: الذل والمشقة.

٦- النصف: العدل.

٧- الخطبة ٣٧، نهج البلاغة.

غير معقول! لأن العالم الآخر ليس بعالم تزاحُم . والله قادر على أن يدخل جميع عباده الجنة دونما تأخير أو انتظار كقدرته على محاسبتهم السريعة: ﴿والله سريع الحساب﴾.

هل الهدف من تعدد الأبواب تقسيم الناس إلى طبقات بحسب مكانتهم أو مشاغلهم الدنيوية؟!

كلا.. هذا غير ممكن أيضاً، فليس ثَمَّ معيار سوى التقوى.

تعدد الأبواب ليس له مفهوم سوى تعدد الدرجات، لا الطبقات.

للإيمان والعمل والتقوى مراتب ودرجات، ولكلٍّ درجته ومنزلته في مدارج الإيمان والعمل والتقوى، بمقدار ما طوى من المراحل التكاملية لهذه المدارج في الحياة الدنيا.

ولكل فئة طوت مرحلة معينة من مراحل تكاملها باب تدخل منها الجنة في الحياة الأخرى حسب درجتها ومنزلتها، أي حسب ما طوته من أشواط على طريق إيمانها وعملها وتقواها في هذه الحياة.. فذاك العَالم تجسّد ملكوتي لهذا العَالم.

الباب التي يدخل منها المجاهدون ـــ إذن ـــ هي الباب الخاصة لأولياء الله، يلجون منها لينالوا فوز القرب الإلهي.

والإمام يصف الجهاد بعد ذلك بأنه لباس التقوى..

والتقوى تعني «الطُّهر الحقيقي».

الطهر الحقيقي من كلّ الآثام.

من المعلوم أنّ جذور الآثام الروحية والخلقية هي الكِبَرُ والغرور والأنانية، ومن هنا فإن المجاهد الواقعي أتقى الأتقياء.

فربّ متّق طهر من الحسد، وآخر من الكبر، وآخر من الحرص، وآخر من البخل.. لكن المجاهد أطهر الطاهرين، لأنه ضحّى بكلّ وجوده، ولذلك اختصّ بباب من أبواب الجنة لا ينالها سائر الطاهرين.

مفهوم «درجات التقوى» يوضحه القرآن بجلاء في الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة/ ٩٣).

هذه الآية توضح مفهومين رائعين من المفاهيم القرآنية.

الأول: فلسفة الحياة وحقوق الإنسان.

فالآية تقول: النِّعم خُلقت للإنسان، والإنسان خُلق للإيمان والعمل والتقوى.

والإنسان يستطيع أن يتمتّع بالنعم الإلهية إذا كان ملتزماً بالحركة على الخط التكاملي، أي على خط الإيمان والتقوى

والعمل الصالح.

الثاني: درجات الإيمان والتقوى، وعلماء الإسلام ـــ انطلاقاً من هذه الآية وغيرها من النصوص ـــ قسّموا مراتب التقوى إلى: العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة.

وتقوى المجاهدين تقوى التضحية والفداء. والشهداء قدّموا كل ما يملكون مخلصين إلى الله تعالى، واختاروا لأنفسهم هذا «اللباس» من ألبسة التقوى.

ثم يصف الإمام الجهاد أنه «درع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة».

لو تربّت أمة مسلمة على روح الجهاد، وتسلّحت بهذا الدرع الإلهي، فلن تنثني أمام أعتى الضربات.

والدرع، لباس من حلقات حديدية يرتديه المقاتل كي يبطل مفعول الضربة على الجسم..

والجُنة[1]، تحول دون وقوع الضربة على البدن.

فالأول عمله المناعة، والثاني: الدفاع.

وربما كان الإمام يشير في وصفه هذا إلى نوعين من الجهاد، جهاد وقائي يعطي للأمة مناعة من آثار الضربات المهلكة، وجهاد

١- الجُنة والمجنّ والمجنّة: كل ما وقى من السلاح .

دفاعي يقف بوجه الضربات.

ثم يستعرض الإمام الآثار السلبية لترك الجهاد، والآثار السلبية التي تتحدث عنها العبارة جماعية لا فردية، أي ترتبط بالمجتمع لا بالفرد.

هذه الآثار السلبية عبارة عن:

أ- الذلة والمسكنة.

ب ـــ الشدائد والمصائب: وهو خلاف ما يمكن أن يُتصور في هذا المجال، فربّ أمة تترك الجهاد طلباً لرغد العيش.. لكن الشدائد والمصائب تتوالى على مثل هذه الأمة.

ج ـــ الإحساس بالحقارة النفسية.

د- فقدان البصيرة والرؤية الصحيحة، وهذه مسألة تُلفت النظر كثيراً.

علي (عليه السلام) يجعل الجهاد طريقاً لتفتّح البصيرة وللرؤية الواضحة الصحيحة. النصوص الإسلامية التي تؤكد على أن البصيرة وليدة العمل صريحة وكثيرة.. لكن هذا النص أكثر صراحة، وذهب إلى أكثر مما ذهبت إليه النصوص الأخرى حيث اعتبر ترك الجهاد يؤدّي إلى إسدال الحجب على القلب أو على الفهم الصحيح والرؤية الواضحة للأمور.

هـ - فقدان مركز القيادة، فالأمة التي تترك الجهاد لن تعود قادرة على حمل راية الإسلام والدعوة إلى الحقّ.

و- الحرمان من إنصاف الآخرين، فالأمة ذات اعتبار ومكانة واحترام مادامت مجاهدة، وإن افتقدت روحها الجهادية فقدت شخصيتها ومكانتها فلا يراعى لها حقّ، ولا تُعامَل بإنصاف.

قال الرسول الكريم:

«الخير كلّه في السيف وتحت ظل السيف».

وقال أيضاً: «إن الله أعزّ أمّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها».

وهذا يعني أن القدرة والقوّة لا تنفصلان عن الأمة الإسلامية، والإسلام دين القوة والقدرة ومدرسة تخريج المجاهدين.

يقول ويل ديورانت في «تاريخ الحضارة»: ليس كالإسلام دين في حثّ أتباعه على التزوّد بالقوة والمقدرة.

وحديث آخر عميق المغزى، روي عن النبي(ص) يقول: «من لم يغز و لم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من النّفاق».

فالإنسان المسلم إما أن يعيش حياة الجهاد عملياً أو على مستوى الأمل على الأقل.

وبهذا المعيار يعرف صدق الإنسان وإخلاصه في إسلامه.

وروي أنه سئل النبي(ص):

ــ ما بال الشهيد لا يفتن في قبره؟

أجاب: «كفى بالبارقة فوق رأسه فتنة».

فالشهيد قد اجتاز امتحانه تحت السيوف التي كانت مشهورة بوجهه، أي أنه أثبت إخلاصه وصدقه، وبيّن حقيقته حين اختار الشهادة، فليس من اللازم أن يؤدّي امتحاناً آخر في عالم البرزخ.

اندفاع نحو الشهادة

الاندفاع نحو الشهادة ظاهرة نلمسها بوضوح في جمهرة غفيرة من مسلمي صدر الإسلام.

وحين يتطلّع الإنسان إلى هذه الظاهرة يحسّ أن في أعماق هذه الفئة المؤمنة شوقاً ولهفة إلى الشهادة.

هذا عليّ ـــ عليه السلام ـــ يقول:

«انه لما أنزل الله سبحانه، قوله: ﴿ الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ علمت أن الفتنة لا تنـــزل بنا ورسول الله (صلى لله عليه وآله وسلم) بين أظهرنا.

فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟

فقال: «يا عليّ، إن أمّتي سيفتنون من بعدي».

فقلت: يا رسول الله أوليس قد قلتَ لي يوم أُحُد حيث

استُشهد من استُشهد من المسلمين. وحيزت عني الشهادة، فشقّ ذلك عليّ، فقلت لي: « أبشر فإن الشهادة من ورائك»؟

فقال لي: «إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟»

فقلت: «يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر. ولكن من مواطن البُشرى والشكر»!!

ويقول علي أيضاً:

«إن أكرم الموت القتل! والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألفُ ضربة بالسيف أهون عليّ من مِيتة على الفراش في غير طاعة الله».

هذا الاندفاع لم يكن مقصوراً على عليّ وأمثال علي، بل إن عامة الناس كانوا يأتون إلى الرسول يطلبون منه أن يدعو الله لهم بالشهادة[1].

هذا «خثيمة» واحد من سائر الناس يتنازع مع ابنه ليسبقه في الاستشهاد.

الأب يصرّ على الابن أن يبقى في البيت ليذهب هو إلى

١- تكررت هذه الظاهرة في إيران الإسلام، فاندفعت الملايين تطلب «المــوت»، فوهب الله لها «الحياة».. والإمام الخميني (رض) ذكر مراراً أن الأفراد يأتوت إليــه باستمرار يطلبون منه أن يدعو الله لهم أن يرزقهم الشهادة!! (م).

الجهاد.

والابن يصرّ على الأب كذلك بالبقاء في البيت ليذهب هو..

فيقترعان.. فتقع القرعة على الابن، فيذهب، ويستشهد.

ثم يرى الأب ولده في عالم الرؤيا يقول له:

يا أبت، إنه قد وعدني ربي حقاً!!

تصاعد شوق الاستشهاد في نفس الرجل العجوز فهُرع إلى النبي يقول له: «لقد وَهَنَ عظمي وخارت قواي، لكني أشتاق إلى الشهادة، فاسأل الله أن يرزقني إياها.. فدعا له رسول الله، و لم يمرّ عام حتى نال الرجل ما تمنّاه.. فقد سقط في معركة أحُد مضمّخاً بدم الشهادة!

و«عمر بن الجموح».. كان قد أُصيب في إحدى رجليه وسقط عنه حكم الجهاد إذ ﴿ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾.

وحانت معركة أُحُد فتجهّز أولاد هذا الرجل للمعركة، وهمّ هو أيضاً أن يشارك مع أبنائه..

نصحه أولاده فلم يستجب لهم. اجتمع أهله وأقاربه ينصحونه بالبقاء فأبى أن يصغي لهم.. وذهب إلى الرسول شاكياً يقول: أبنائي يمنعوني أن أفوز بالشهادة.

فأجازه رسول الله أن يشارك في المعركة، وطلب من أبنائه أن

يَدَعوه يحقّق أمنيته في الاستشهاد.

فخاض المعركة واستُشهد.

وعندما بلغ خبر هزيمة المسلمين في أُحُد المدينةَ المنوّرة سارع مَنْ كان في المدينة إلى جبل أُحد، وبينهم امرأة عمر بن الجموح.

عثرت هذه المرأة على جسد زوجها وابنها وأخيها، فوضعت الأجساد على ظهر بعير، وقفلت راجعة إلى المدينة لتدفن قتلاها في البقيع.. لكنها ألفت البعير يأبى الاتجاه نحو المدينة، ولا يتحرّك إليها إلا بمشقة . فالتقت بنسوة قادمات من المدينة نحو أحُد بينهن عائشة زوج الرسول(ص).

سألتها عائشة: من أي مكان تأتين؟

أجابت: من أُحد.

قالت عائشة: فما هذا الذي على ظهر البعير؟

أجابت ببرود تام: أجساد زوجي وابني وأخي، أذهب بهم إلى المدينة لأدفنهم هناك.

ثم سألتها عمّا وراءها.

أجابت المرأة: خيراً.. النبي سالم والحمد لله، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم.

ثم قالت المرأة لعائشة: إن هذا البعير يأبى العودة إلى المدينة

وكأنه يروم الذهاب إلى أُحُد.

قالت عائشة: لننطلق معاً إلى النبي في أُحُد، ثم قصّت المرأة على النبي ما كان من شأن البعير.

فسألها رسول الله عمّا قاله زوجها حين غادر المنـــزل، قالت: رفع يده إلى السماء، وسأل الله تعالى أن لا يعيده إلى بيته.

فأخبرها النبي باستجابة دعوة زوجها، وأمر بدفنه مع سائر الشهداء في أُحُد.

روح الاندفاع نحو الشهادة تجسّدت في كل أئمة آل البيت وأتباعهم، وهذه الروح تطفح في أدعيتهم التي خلّفوها لنا ومنها:

«اللهم برحمتك في الصالحين فأدخلنا، وفي عليّين فارفعنا.. وقتلا في سبيلك مع وليّك فوفّق لنا».

والحسين بن علي (عليه السلام) يردّد وهو يسير نحو كربلاء هذه الأبيات:

فإن تكن الدنيا تُعدّ نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبلُ

وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخلُ

وإن تكـــن الأبدان للموت أُنشئت فقتل أمرئ بالسيف في اللهأجملُ

منطق الشهيد

لكل إنسان منطق خاص، وطريقة تفكير خاصة. ولكلٍّ معاييرُ ومقاييس يحدّد بموجبها موقفه من المسائل والظواهر المختلفة.

وللشهيد منطق خاص.. إنه «منطق الشهيد» الذي لا يمكن قياسه بمنطق الأفراد العاديين. فمنطق الشهيد أسمى.. إنه مزيج من منطق المصلح ومنطق العاشق.. منطق المصلح الذي يتضوّر قلبه ألماً لمجتمعه، ومنطق العارف العاشق للقاء ربه.

بعبارة أخرى لو امتزجت مشاعر عارفٍ عاشقٍ للذات الإلهية بمنطق إنسان مصلح لنتج عن ذلك «منطق الشهيد».

لا أحسب أني استطعت أن أعطي «منطق الشهيد» حقّه من التصوير والتوضيح فلأضرب لذلك مثلاً:

حين توجّه الحسين بن علي (عليه السلام) نحو الكوفة، أجمع

عقلاء القوم على منعه من السفر قائلين: إن عزمه على السفر إلى العراق غير منطقي.

وكانوا صادقين فيما يقولون.. لم يكن عزم الإمام ينسجم مع منطقهم.. مع منطق الإنسان الاعتيادي.. مع منطق الإنسان الذي يدور فكره حول محور مصالحه ومنافعه. لكن الحسين كان له منطق أسمى، كان منطقة منطق الشهيد، ومنطق الشهيد أسمى وأرفع من منطق الأفراد العاديين.

لم يكن الناصحون له من عامة الناس، بل كان بعضهم من السياسيين العلماء، ومنطقهم منطق السياسة والمصلحة، منطق الحنكة والذكاء الذي يدور حول المصلحة الفردية والانتصار الشخصي على المنافسين.

وذهاب الحسين إلى العراق عملية خاطئة استناداً إلى هذا المنطق.

وهنا تجدر الإشارة إلى اقتراح ذكيّ قدّمه أحد الناصحين إلى الحسين..

لقد اقترح عليه أن يسلك طريقاً سياسياً من نوع الطرق التي يسلكها «الأذكياء» ممن يتخذون الناس وسيلة لتحقيق أهدافهم وممن يقفون في المؤخرة دافعين الجماهير نحو مقدمة الجبهة، فإن

أحرز النصر نالوا ما جنته يدُ الجماهير، وإن فشلت الجماهير وقفوا على التل سالمين.

قال للحسين: «يا ابن عمّ إنّي أتصبّر ولا أصبر، إنّي أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال، إنّ أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد، فإنك سيد أهل الحجاز،فإن كان أهل العراق يريدونك ـــ كما زعموا ـــ فاكتب إليهم، فلينفوا عاملهم وعدوّهم، ثم أقدم عليهم»[1].

يريد هذا الناصح المخلص أن يضع جماهير العراق في مقدمة الجبهة والحسين في المؤخّرة.

يريد أن يقول للحسين: دع أهل العراق يواجهون العدوّ بأنفسهم، فإن انتصروا فقد استتبّ الأمر لك، وإن لم يفعلوا كنت في حِلّ منهم، ولن يصيبك مكروه.

لم يُعرِ الحسين أي اهتمام لهذا الاقتراح وأعلن عن عزمه على الذهاب.

فقال له الناصح المشفق: فإن كنت سائراً فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك.

١- ابن الاثير، ج ٤، ص ١٦.

أجابه الحسين: يا ابن عم، إني لأعلم أنّك ناصح مشفق، وقد أزمعت وأجمعت المسير!!

نعم..

منطق الشهيد منطق آخر: منطق الشهيد منطق الاشتعال والإضاءة، منطق الانصهار والانحلال في جسم المجتمع من أجل بعث الحياة في هذا الجسم، وبعث الروح في القيم الإنسانية الميّتة.. منطق تسجيل الملاحم.. منطق النظرة البعيدة .. البعيدة جداً.

ومن هنا كانت كلمة «الشهيد» مقدسة عظيمة.

ومن هنا فإننا لا نعطي الشهيد حقّه إن وصفناه أنه «مصلح» لأنه فوق المصلحين، أو أنه «بطل» لأنه أعظم من الأبطال.

لا يمكن وصف الشهيد إلا أنه «شهيد» وليس بمقدورنا أن نستعمل كلمة أخرى.

دم الشهيد

الشهيد يقف بوجه العدوّ، فإمّا أن يصرعه وإمّا أن يُصرع، لكنّ عمل الشهيد لا ينحصر في هذا الموقف!

لو كان عمله منحصراً بهذا لذهب دمه هدراً حينما يخرّ صريعاً في ساحة المعركة. وهذا مالا يحدث، فدم الشهيد لا يذهب هدراً.. دم الشهيد لا يُراق على الأرض.

كلّ قطرة من دم الشهيد تتحوّل إلى آلاف القطرات.. بل إلى بحر من الدماء يدخل جسد المجتمع.

ومن هنا قال الرسول (صلى الله عليه وآله): «ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دم في سبيل الله».

الشهادة تزريق لجسد الأمة بدم جديد. والشهداء يضخّون في شرايين المجتمع، وخاصة المجتمع الذي يعاني من فقر الدم، دماً جديداً.

ملحمة الشهيد

الشهيد يسجل بدمه ملحمة يحيي بها روح الحماسة في مجتمع ماتت فيه روح الحماسة وخاصة الحماسة الإلهية.

ولهذا فالإسلام بحاجة دوماً إلى شهيد..

لأنه بحاجة مستمرة إلى حماسة متجدّدة.. والى ولادة متجدّدة.

خلود الشهيد

العالِم يخدم المجتمع بعلمه، وعن طريق العلم يخرجُ هذا العالِم من فرديته ليرتبط بالمجتمع.

أي، عن طريق العلم تتحد شخصيته الفردية بشخصية المجتمع كما تتّحد القطرة بالبحر.

بهذا الاتحاد، يخلّد العالم جزءاً من شخصيته، أي يخلّد فكره وعمله.

والمخترع يتّحد بالمجتمع عن طريق اختراعه، ويخلّد وجوده عن طريق ما يقدّمه للمجتمع من مخترعات.. وهكذا الفنان والشاعر ومعلّم الأخلاق..

والشهيد يخلّد نفسه في المجتمع عن طريق دمه، أي عن طريق الدم الجديد الخالد الذي يهبه شرايين المجتمع، وبعبارة أخرى يكتسب الشهيد صفة الخلود عن طريق تقديم كل وجوده

وحياته.. لاعن طريق تقديم جزء من وجوده وشخصيته، كما يفعل غيره من الخالدين.

ولهذا فالنبي الكريم يقول: «فوق كلّ ذي برّ برّ حتى يُقتل في سبيل الله، وإذا قُتل في سبيل الله، فليس فوقه برّ».

شفاعة الشهيد

ورد في الأثر أن الله يقبل الشفاعة يوم القيامة من ثلاث فئات: الأنبياء والعلماء ثم الشهداء.

وهنا ينبغي أن نوضّح أن الشفاعة هذه هي «شفاعة الهداية».. إنها تجسيد لما حدث في الدنيا من حقائق..

فعن طريق الأنبياء اهتدى الناس ونجوا من الظلمات.

والعلماء ــ في هذا الحديث ــ هم العلماء الربانيّون بمن فيهم الأئمة الأطهار والرهط الصالح من أتباعهم ومن حذا حذوهم، وهؤلاء أيضاً ساروا على طريق الأنبياء وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور.

والشهداء ينهضون بنفس الدور، يضيئون الدرب أمام الناس، فيهتدي من يريد الهداية، وبذلك يكون الشهداء شفعاء لمن اهتدى بهم.

البكاء على الشهيد

«حمزة بن عبد المطلب» عمّ النبي الكريم، استُشهد في أُحد، ولمع اسمه بين شهداء صدر الإسلام، وحاز لقب «سيد الشهداء»، وقبره الآن بين شهداء أُحُد مزار لكل الذين يقصدون زيارة المدينة المنورة.

كان حمزة قد هاجر من مكة إلى المدينة حيث مكث وحيداً ليس معه فيها من ذويه أحد، حتى استُشهد.

حين رجع النبي(ص) بعد معركة أُحُد إلى المدينة، وجد أصوات البكاء تتصاعد من بيوت الشهداء إلا بيت حمزة.. فقال عبارته المعروفة: «أمّا حمزة فلا بواكي له».

سرعان ما انتشرت هذه الكلمة في أرجاء المدينة، فأسرعت النساء الثكلى والأيامى إلى بيت حمزة ليبكينه احتراماً لمقولة النبي

ولحمزة عمّه.

فأصبحت العادة منذ ذلك الوقت أن يذهب كل من يريد أن يبكي على شهيد، إلى بيت حمزة ليبكيه أولاً.

وهذه الحادثة دلّت على أن الإسلام ــ وإن لم يشجّع على بكاء الموتى ــ يميل إلى أن يبكي الناس على الشهيد.. لأن البكاء على الشهيد اشتراك معه فيما سجله من ملاحم، وتعاطف مع روحه، وانسياق مع نشاطه وتحركه وتياره.

بعد حادثة عاشوراء، احتلت شهادة الحسين مركز الذروة على مسرح الشهادة. وانتقل لقب «سيد الشهداء» إلى الحسين(ع) وبقي حمزة سيداً للشهداء، لكن عبارة «سيد الشهداء» إن أطلقت دون ذكر اسم فلا تنصرف إلا إلى الحسين.

كان حمزة سيد شهداء زمانه، وحاز الحسين على لقب سيّد شهداء جميع الأعصر والدهور، كمريم العذراء التي كانت سيدة نساء زمانها، ثم أضحت فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين.

كان حمزة ــ قبل استشهاد الحسين ــ رمزاً للبكاء على الشهيد، وكان البكاء عليه مظهراً من مظاهر الانشداد بطريق الشهادة، ثم انتقلت هذه المكانة إلى الحسين بعد موقعة كربلاء.

فلسفة البكاء على الشهيد

من الضروري أن نقف ــ ولو قليلاً ــ عند مسألة «البكاء على الشهيد» وهي مسألة لاكتها الألسن بكثير من عدم الفهم، وواجهت كثيراً من الاعتراضات.

هجّم بعضهم بصراحة على هذه الظاهرة مدّعياً أنها وليدة نظرة خاطئة إلى مسألة الشهادة وأنها ذات آثار اجتماعية سلبية.

أتذكّر أني قرأت أيام التلمذة كتاباً للكاتب المعروف آنذاك «محمد مسعود» طرح فيه مسألة البكاء على الحسين بن علي (ع) وقارن ذلك بما دأب عليه المسيحيون بالاحتفال، بل بالابتهاج في ذكرى استشهاد المسيح!

قال: انظروا إلى أمة تبكي على شهيدها لأنها تحسب الشهادة فشلاً وخسراناً وأمراً يبعث على الحزن والأسف، وأمة أخرى تبتهج بذكرى شهادة شهيدها لأنها تنظر إليها نظرة اعتزاز

وافتخار.

وأمّة تبكي ألف عام على استشهاد شهيدها وتتحرّق ألماً وأسفاً عليه لابدّ أن تكون ضعيفة مهزوزة مهزومة. لكنّ أمة تبتهج حين تحيي ذكرى شهادة شهيدها خلال القرون المتمادية لهي أمة قوية مقتدرة مضحّية حتماً.

هذا الكاتب يريد أن يقول: إن البكاء على الشهيد مظهر ضعف الأمة وانحطاطها، والابتهاج بذكرى الاستشهاد ينمّ عن روح قوية مقتدرة. لكن المسألة في رأيي هي عكس ما ذهب إليه الكاتب، فالابتهاج في ذكرى الاستشهاد يعبّر عن «الروح الفردية» في المسيحية. والبكاء على الشهيد يعبر عن «الروح الاجتماعية» في الإسلام.

لا أريد هنا طبعاً أن أبرّر أعمال غير الواعين من الناس ممن ينظرون إلى الحسين على أنه مجرد شخصية تثير الحزن والأسف والأسى لأنه قُتل مظلوماً، ولأنه ذهب ضحية أهواء الطاغوت.

لا أريد أن أُبرّر أعمال أولئك الذين لا يضعون نصب أعينهم مواقف الحسين البطولية في إحيائهم لذكرى سيد الشهداء، فقد سبق أن انتقدنا هؤلاء حين تحدثنا عن «منشأ القدسية» في الشهيد.

بل أريد أن أوضّح فلسفة تعليمات قادتنا الميامين في حقل البكاء على الشهيد.

هذه الفلسفة التي يتفهّمها جيداً كل الواعين ممن يشاركون في مجالس عزاء الحسين.

ما هي طبيعة الموت؟

ثمة اتجاهات متباينة في نظرتها إلى الموت..

ـــ فاتجاه يرى أن علاقة الإنسان بالعالم، وعلاقة الروح بالجسد هي نوع من العلاقة التي تربط السجين بالسجن، وغريق البئر بالبئر، والطير بالقفص.

والموت في رأي هذا الاتجاه الفكري خلاص وحرية، والانتحار بموجبه مشروع. وتنسب إلى «ماني» المعروف هذه النظرية، وبموجبها يكتسب الموت صفة إيجابية مطلوبة، إذ إنه نجاة من سجن وخروج من بئر وتحرر من قفص. وليس فيه ما يدعو إلى الأسف بل إنه يدعو إلى الابتهاج.

ـــ واتجاه ثان يرى أن الموت عدم وفناء، خلافاً للحياة التي هي وجود وبقاء.. والإنسان يميل غريزياً وبالبداهة إلى ترجيح الوجود على الفناء، ولذلك فهو يفضّل الحياة ـــ بأية صورة كانت ـــ على الموت.

يتحدث «المولوي» عن «جالينوس» الطبيب الاسكندراني المعروف أنه قال: إني أفضل أن أبقى حياً حتى ولو قُدّر أن أعيش في بطن بغلة ورأسي خارجها!!.

هذا الاتجاه ينظر إلى الموت نظرة سلبية تماماً.

ـ والاتجاه الآخر يرفض أن يكون الموت إبادة وفناءاً.. ويرى أنه انتقال من عالم إلى آخر، ويرفض أن تكون علاقة الإنسان بالعالم، وعلاقة الروح بالجسد من نوع علاقة السجين بالسجن، أو الغريق بالبئر أو الطير بالقفص، ويذهب إلى أنها كعلاقة الطالب بالمدرسة وعلاقة الفلاح بالمزرعة.

الطالب يعاني في دراسته مصاعب متعددة كابتعاده عن الأهل والأحبّة وعن الوطن أحياناً، وكتقيّده بجدران الصف والمدرسة. لكن الطريق الوحيد لسعادة هذا الطالب في المجتمع ينحصر في إنهاء دراسته بنجاح.

والمزارع يتحمل في حقله أنواع الأتعاب، ويعاني من ابتعاده عن أهله وأطفاله.. لكن عمله في المزرعة هو الذي يوفّر له وسيلة حياة مرضية في كنف عائلته طول أيّام السنة.

وكيف يستقبل الموت أصحاب هذا الاتجاه الأخير؟

هؤلاء يخافون من الموت وينفرون منه إن كانوا قد أضاعوا

عمرهم، وأتلفوا حياتهم، وارتكبوا المعاصي والآثام.. لكنهم يستقبلون الموت ببشر وسرور، ويترقّبونه بفارغ الصبر إن كانوا قد أدّوا ما عليهم من مسؤولية في الحياة، ونجحوا في اجتياز المرحلة الدنيوية، شأنهم في ذلك شأن الطالب الذي جدّ واجتهد ونجح في دراسته ويودّ بلهفة أن يعود إلى وطنه والى أحضان أهله وأحبائه. وكالمزارع الذي بذل غاية جهده في عمله، ويأمل بشوق شديد أن ينتهي من عمله، ويأخذ ما جنته يداه إلى بيته.

هذا الطالب يصارع رغبته في العودة إلى وطنه قبل انتهاء دراسته، ويأبى على نفسه أن يترك دراسته ناقصة. وهكذا المزارع لا يتهاون في أداء عمله وواجبه أملاً في تحقيق مكاسبه .

شأن أولياء الله شأنه هذا الطالب.. ينظرون بعين الشوق والأمل إلى الموت باعتباره نُقلة إلى العالم الآخر، وهذا الأمل يعتمل في نفوسهم، فلا يقرّ لهم قرار.. يقول علي(ع): «ولولا الأجل الذي كَتَبَ الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب» (الخطبة/١٩٣).

ومع هذا.. فأولياء الله لا يلقون بأنفسهم نحو الموت، إذ يرون العمر فرصة وحيدة للعمل والتكامل، ويعلمون أنهم يستطيعون اجتياز مراحل أسمى على سلّم التكامل إن استمروا على قيد الحياة.. فيطلبون من الله أن يطيل أعمارهم.

ومن هنا فلا تعارض بين شوق المؤمنين إلى الموت وطلبهم طول العمر.

القرآن الكريم يخاطب اليهود الذين زعموا أنّهم «أولياء لله» قائلا: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم يقول: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ﴾.

هؤلاء هم من النوع الذي أشرنا إليه آنفاً في القسم الثالث من وجهات النظر إلى الموت.

أولياء الله يعرضون عن طلب طول العمر في موضعين:

الأول: حين يشعرون بعدم قدرهم على إحراز مزيد من النجاح في حياهم، بل يحسّون بتناقص بدلاً من التكامل.

يقول علي بن الحسين(عليه السلام) في دعائه:

«إلهي وعمّرني ما دام عمري بَذلةً في طاعتك، فإن كان مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك».

الثاني: الشهادة، فأولياء الله يطلبون من الله الموت في موضع الشهادة دونما شروط. لأن الشهادة تنطوي على الخاصيتين معاً: خاصية العمل، وخاصية التكامل.

والحديث النبوي: «فوق كل ذي برّ برّ، حتى يُقتل في سبيل

الله، وإذا قُتل في سبيل الله، فليس فوقه برّ»، يؤكد هذه الحقيقة.

ومن هنا يكاد الإمام علي يطير فرحاً حين يسمع من النبي أن مصيره الشهادة.

وعلي (ع) تحدّث عن الموت كثيراً ومما قاله في هذا الصدد: «والله ما فجأني مِنَ الموت واردٌ كرهته ولا طالعٌ أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورد وطالب وجد».

هذه النظرة إلى الموت بلغت من العمق والرسوخ في نفس «علي» بحيث رفع عقيرته حين هوى السيف على مفرق رأسه صبيحة التاسع عشر من رمضان مردّداً:

«فزت ورب الكعبة»!!

والحسين بن علي(ع) يروي عن جدّه رسول الله(ص) أنه قال له:

«إنّ لك منزلة عند الله لا تنالها إلا بالشهادة».

إلى هنا، حلّلنا مسألة الموت والشهادة في «الإطار الفردي».

وتبيّن لنا: أن الموت على مسرح الشهادة فوز للشهيد ما بعده فوز، ويستحق الفرح والابتهاج.

ومن هنا يقول السيد ابن طاووس: لو لم تصل إلينا الأوامر بالتعزية، لأقمنا حفلات الابتهاج في ذكريات استشهاد أئمتنا.

ومن هنا أيضاً، يحقّ للمسيحيين أن يقيموا حفلات سارّة بمناسبة استشهاد المسيح ــ كما يعتقدون ــ والإسلام يصرح بأن الشهادة فوز للشهيد لا غير.

التحليل السابق ــ كما ذكرنا ــ يقتصر على (الإطار الفردي) لمسألة الشهادة.. ولهذه المسألة ــ في نظر الإسلام ــ إطار آخر هو «الإطار الاجتماعي».

الإطار الاجتماعي للشهادة ينظر إلى المسألة باعتبارها ظاهرة لها جذورها الممتدّة في أعماق المجتمع، ولها آثارها الجسيمة التي ستتركها على الحياة الاجتماعية.

موقف المجتمع من الشهيد ومن حادثة الشهادة لا يرتبط بالشهيد ذاته فقط بما حققه الشهيد من نجاح فردي، أو بما مُني به من فشل فردي فحسب.. بل إن هذا الموقف يرتبط بردّ الفعل الذي سيبديه المجتمع تجاه الشهيد، وتجاه جبهة الشهيد من جهة، وتجاه الجبهة المعارضة للشهيد من جهة أخرى.

الشهيد يرتبط بمجتمعه عن طريقين:

الأول: ارتباطه بإفراد حُرموا من وجوده ومن معطياته.

ووقع الشهادة على هؤلاء الأفراد مؤلماً محزناً. وإن بكى هؤلاء على الشهيد فإنما يبكون في الحقيقة على أنفسهم.

الثاني: ارتباطه بالأفراد الذين ثار الشهيد بوجههم، لما بثّوه في المجتمع من إثم وفساد. أي ارتباطه بالجوّ الفاسد الذي ناضله الشهيد وسقط صريعاً على طريق نضاله.

هذا الارتباط يلقي على المجتمع أول درس من دروس الشهيد.

هذا الدرس يتلخّص في الطلب من أفراد المجتمع بعدم السماح للأجواء الفاسدة أن تظهر في المجتمع.

شهادة الشهيد تُطرح في إطار هذا الدرس على أنها أمر مؤلم مفجع، لكن هذا الألم يتحوّل في نفوس الأفراد إلى سخط على الذين ثار الشهيد بوجههم، وعلى الذين قُتل الشهيد بأيديهم.. وهذا السخط يحول دون ظهور قَتَلَة جناة في المجتمع.

وهذا الدرس نتلمّس آثاره في الذين تربّوا في مجالس العزاء الواقعية على الحسين، إنهم يأبون أن يتشبّهوا قيد أنملة بقَتَلَة الحسين.

وللشهادة دروس اجتماعية أخرى.

المجتمعات الإنسانية لا تخلو من أجواء فاسدة تتطلب الشهادة.

وهنا ينبغي دفع مشاعر أفراد المجتمع على طريق الاستشهاد، عن طريق سرد ما قام به الشهيد من أعمال بطولية عن «وعي» و«انتخاب».

فعن هذا الطريق ترتفع مشاعر أفراد المجتمع إلى مستوى مشاعر الشهيد، وتنطبع بطابعها ومن هنا قلنا إن البكاء على الشهيد اشتراك معه فيما سجله من ملاحم، وتعاطف مع روحه، وانسياق مع نشاطه وتحركه وتياره.

وهنا يحق لنا أن نطرح هذا السؤال: هل إن مجالس الفرح والرقص والسكر والعربدة ـــ كما هو مشهود في مجالس المسيحيين الدينية ـــ قادرة على خلق هذه المشاعر الاجتماعية تجاه الشهيد؟! أم مجالس البكاء؟

يخطئ من يظن أن البكاء ظاهرة سلبية تنمّ دائماً عن مشاعر الحزن والألم.

الضحك والبكاء من خصائص الإنسان .. الحيوانات تشعر باللذة والألم، لكنها لا تعبّر عما تحسّه بضحك أو بكاء.

الضحك والبكاء مظهران لأشد حالات إثارة العواطف البشرية.

للضحك أنواع وأقسام لسنا الآن بصدد الحديث عنها، وهكذا بالبكاء..

والبكاء يرافق عادة نوعاً من الرقّة والهياج، فدموع الشوق والحب معروفة للجميع.

وفي حالة البكاء وما يصحبه من رقّة وهياج يشعر الإنسان بقربه من حبيبه الذي يبكي عليه، أكثر من أيّ وقت آخر، بل يشعر في تلك الحالة باتحاده مع الحبيب.

الضحك والسرور لهما غالباً طابع «التوغل في الذاتية»، والبكاء له ــ على الأكثر ــ طابع «الخروج من أغلال الذاتية»، وطابع نكران الذات، والذوبان في ذات المحبوب.

الضحك بهذا المنظار يشبه «الشهوة» التي ليست سوى الانغماس في الذات.. والبكاء يشبه «الحب» الذي هو خروج من إطار الذات. الإمام الحسين بما سجله من مواقف على ساحة الشهادة يملك قلوب مئات الملايين من أبناء البشر.

ولو قُدّر لعلماء الدين ــ وهم الأمناء على صيانة هذا الانشداد بالحسين ــ أن يستثمروا هذه المشاعر بدفعها على طريق الحسين وبرفعها إلى مستوى آمال الحسين وروح الحسين، لأمكنهم أن يصلحوا العالم بأسره.

سرّ بقاء الحسين يكمن في البعد العقلي لثورته، وفيما تتميّز به من منطق إنساني سليم. ومن جهة أخرى في جذورها الضاربة في أعماق المشاعر والعواطف.

البكاء على الحسين يحافظ على بقاء هذه الجذور العاطفية في

النفوس، ويصونها من الضعف والزوال. ومن هنا نفهم حكمة توصيات أئمتنا في البكاء على الحسين..

لكن ظاهرة البكاء تبقى دونما عطاء ــ كما قلنا ــ إن لم تُستثمر على الطريق الصحيح.

تربة الشهيد

رسول الله (صلى الله عليه وآله) علّم ابنته ذكراً عُرف فيما بعد بتسبيحة الزهراء، يكبّر فيه الذاكر ٣٤ مرة، ويحمد الله ٣٣ مرة ويسبّحه ٣٣ مرة.

ومن أجل أن تضبط الصديقة الطاهرة أعداد التكبير والحمد والتسبيح في ذكرها، بادرت إلى أن تعمل لنفسها مسبحة.. وما كان منها إلا أن توجّهت إلى قبر حمزة بن عبد المطلب لتأخذ منه تربة تعمل منها مسبحتها!

ولهذا الانتخاب.. انتخاب تربة الشهيد حمزة، مدلوله العميق، يمكن عمل المسبحة من خشب أو حجارة أو أية تربة أخرى. لكن انتخاب تربة الشهيد يدلّ على احترام الشهيد والشهادة، بل يعني تقديس الشهادة.

بعد استشهاد الحسين، أضحت تربة الحسين محطاً لأنظار

المتبركين بصعيد الشهادة.

أتباع مدرسة آل البيت لا يسجدون على المأكول والملبوس استناداً إلى ما ورد من نهي عن ذلك.. ويضعون جباههم أمام الله على الصخر أو التراب، لكنهم يفضلون (يفضلون فقط) ـ استناداً إلى تعاليم أئمتهم ـ أن يمرّغوا جباههم أمام ربهم على تربة الشهيد.. على تربة الحسين.

السجود يصحّ على أية تربة، لكن تربة كربلاء معطّرة بشذى الشهادة، وتفوح منها رائحة القرب من الشهيد. وتحبيذ السجود عليها هو اهتمام بتذكر مكانة الشهيد وقيمة الشهادة باستمرار.

ليلة الشهيد

لقد اجتمعنا هذه الليلة لنحيي ذكرى ليلة العاشر من محرّم.. وهي ليلة الشهيد.

شاع في عالمنا المعاصر اتخاذ يوم من أيام السنة لتكريم فئة من الفئات ويقترن ذلك اليوم باسم تلك الفئة كيوم العمال، ويوم المعلم، ويوم الأم...

لكننا لم نسمع بتخصيص يوم لتكريم الشهيد.. وفي الإطار الإسلامي، تميّز يوم العاشر من محرّم وحده بأنه يوم الشهيد[1].

ها نحن نجتمع في ليلة هذا اليوم الكبير لنعيش منطق الشهادة..

١- حبذا لو اتخذت الشعوب الإسلامية بأجمعها هذا اليوم يوماً للشهيد، لتستلهم جميعاً من هذه الذكرى ما يعينها على الوقوف بوجه أنواع التحديات التي تواجهها (م).

منطق العشق الإلهي الممزوج بمنطق الإصلاح الاجتماعي... منطق الإنسان العارف المصلح.. منطق مسلم بن عوسجة، وحبيب بن مظاهر وزهير بن القين[1] وأمثالهم من الشهداء الذين يمثلون منطق الشهادة وشخصية الشهيد خير تمثيل.

١- من التابعين الذين كانوا في صفّ أصحاب الحسين (م).

وسام الحسين

في مثل هذه الليلة اجتمع الحسين بأصحابه ليقلّدهم وساماً يتناسب مع مكانتهم ومنـــزلتهم، وليميط اللثام عن صمودهم وإصرارهم على انتخاب طريق الشهادة.

جمع الحسين أصحابه عند قرَب الماء ـــ وفي رواية عند قرب المساء ـــ فخطبهم قائلاً:

«أثني على الله أحسن الثناء، وأحمدُهُ على السرّاء والضرّاء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين..».

ثم قال: «أما بعد فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، جزاكم الله عنّي جميعاً.

ألا وإنّي أظن أن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإنيّ قد أذنتُ

لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جَمَلاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فإنّ القومَ إنّما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري...».

إذن جمع الحسين أصحابه في اللحظة الحرجة.. في ليلة المواجهة.. ربّما يكون قد جمعهم في الخيمة المخصّصة لِقرَب الماء في معسكر الحسين، إذ إن أرباب المقاتل يذكرون أن آخر وجبة من الماء حصل عليها الحسين كانت ليلة العاشر من محرم، وفي هذه الليلة شرب من كان مع الحسين، ثم قال لأصحابه: اغتسلوا بما بقي من هذا الماء، فإنه آخر حظّكم من ماء الدنيا..

ويبتدئ الحسين ــ في خطبته ــ بالثناء على الله تعالى وحمده على كلّ حال.

عبارات الحمد والشكر تتردّد على لسان الحسين دوماً، معبّرة عن الارتباط الوثيق بينه وبين الله تعالى.

فقد أجاب الفرزدق حين قال له: قلوب الناس معك وسيوفهم عليك:

«إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم

يعتدِ من كان الحقّ نيّته والتقوى سريرته»(١).

ثمّ شهد الحسين بفضل أصحابه وأهل بيته فقلّدهم وسامه الخالد إذ قال:

«لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي...».

ثم أراد الحسين أن يختبر أصحابه لآخر مرة، حين طلب منهم أن يتفرّقوا ويتركوه لوحده، فإن القوم لا يطلبون سواه..

لكنه سمع من أهل بيته وأصحابه جواباً سرّه من الأعماق.

١- الكامل، ٣/٢٧٦، الطبري، ٤/٢٩٠.

منطق أصحاب الحسين

قال له إخوته، وأبناؤه، وبنو أخيه، وأبناء عبد الله بن جعفر.

ولِمَ نفعل؟ لنبقى بعدك..؟! لا أرانا الله ذلك أبداً.

وقال مسلم بن عوسجة.

«أنحن نخلّي عنك ولـمّا نعذر إلى الله في أداء حقّك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».

وقال سعد بن عبد الله الحنفي:

«والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله (ص) فيك، والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق حيّاً ثم أُذرّ، يُفعَل بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. فكيف

لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة!!».

وقال زهير بن القين: «والله لوددت أني قُتلت، ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أُقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفُس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»[١].

عند ذاك أخبرهم الحسين باستشهادهم يوم غد..

فهلّلوا و كبّروا وحمدوا الله على ما أنعم عليهم.

هذا هو منطق الشهيد..

لو لم يكن منطق أصحاب الحسين منطق شهادة لآثروا ترك الحسين..

لأن الحسين سيُقتل غداً لا محالة.. فما فائدة بقائهم مع الحسين؟!

والحسين نفسه.. سمح لهم بالمغادرة.. و لم يصرّ عليهم بذلك.

لو كان منطق الحسين غير منطق الشهادة، لأفتى بحرمة بقائهم، لأن بقاءهم يعرّضهم لخطر الموت والتهلكة.

لكن الشهداء أبوا المغادرة، والحسين أبى أن يُصرّ عليهم.. بل سرّ واستبشر بمواقفهم، لأن منطق الحسين وأهل بيته وأصحابه

١- الطبري ٤/٣١٧، ٣١٨ .

منطق الشهيد، وهذا المنطق يرى أن المجتمع الميت بحاجة إلى دم يحرك كيانه المشلول.

الشهادة لا تستهدف التغلب على العدو وحسب.. بل تستهدف تسجيل المواقف البطولية وتدوين الملاحم الإنسانية.

وهكذا كان..

لقد بقيت ملحمة كربلاء وستبقى تُضيء الطريق أمام الأجيال.. وصرخة بوجه الظالمين في كل زمان ومكان.. وهزّة تنبعث في جسد الأمة متى ما اعترى هذا الجسد خمود وركود.

العناوين


بسم الله الرحمن الرحيم